المبحث الأول: حي بن يقظان " قصة من التراث "

إن المهتم و القارئ للقصص الخيالية والروايات الفلسفية التي رويت في الفلسفة الإسلامية لابد له أن يمر على احد القصص المشهورة في التراث الإسلامي وهي قصة ذلك الرجل الذي يجد نفسه وحيدا لينطلق في البحث والتحليل والاستنباط من الحقائق ليصل في الأخير إلى العلاقة بين الله الخالق والإنسان المخلوق.

حيث تعتبر قصة "حي بن يقظان"من أروع القصص و الروايات الفلسفية المنبثقة عن التراث الإسلامية ، إذ قدّم فيها الفلاسفة والكتاب سرداً رائعاً للآراء الفلسفية التي تمثلهم ممزوجةً بالأحداث ضمن سياق قصصي، حيث يخاطب من خلالها الكاتب عقل القارئ ويصب أصعب المسائل الفلسفية فيه بأكثر الطرق سلاسة وسهولة دون الشعور بالملل.

كما يشار إلى أن قصة حي بن يقظان هي بالأصل رواية يونانية تحمل اسم أبسال وسلامان؛ إلا أن خلافا لذلك فإن هناك من يرى **أن** ابن سينا هو أول من كتب عن قصة "حي بن يقظان" وتلاه ابن طفيل ثم السهروردي وأخيرا ابن النفيس الذي غير اسم "حي بن يقظان" إلى "فاضل بن ناطق" لكن القصة عند ابن طفيل كانت أنضج وأطول وأكثر استيعابا وأن فلسفته كانت انعكاسا للصراع بين البرجوازية الآفلة والإقطاع الذي ساد العالم الإسلامي برمته منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى مشارف العصر.

فما المضامين التي احتوتها قصة حي بن يقضان لمؤلفين الأربعة ؟

أولاً : قصة حي بن يقظان لابن سينا:

كتعبير عن الآراء الفلسفية فقد عرض ابن سينا جانباً من آرائه وأفكاره في قالب قصصي رمزي هدف، من خلاله، إلى عرض آرائه الفلسفية والعقلانية، فكتب قصته (حي بن يقظان) يرمز بها إلى العقل الفعال والنفس الإنسانية، كما تناول من خلالها الحديث عن الغرائز والشهوات، وسائر ملكات الإنسان، واستعرض النزاع بين الشهوات الغريزية والضمير الإنساني اليقظ.

*** ملخص قصة "حي بن يقظان " لأبن سينا :**

" أن ابن سينا قد صادف في رحلة من رحلاته بشيخ بهي الطلعة كبير السن فقصد إليه، رغبة في محادثته، فاستأنس الشيخ بيه وتبادلا أطراف الحديث ؛ حيث تعرف"ابن سينا" على الشيخ الذي هو "حي ابن يقظان" وقد قَدم من بلدة بيت المقدس، وكانت مهنته السياحة في أقطاب الأرض حتى أحاط بخبرها وأن أباه قد منحه مفاتح العلوم كلها فاهتدى إلى الطريق السالك, وطال بهم الكلام حتى أفضى بهم إلى علم الفراسة الموصل إلى كشف الأمور الخفية عن طريف مقدمات عرفانية بديهية "[1].

فيحدثه الشيخ عن الرفقة التي تصحب الإنسان (شهواته) فيصفها بأنها رفقة سوء وأنها ملتصقة بالنفس التصاقاً، وعلى الإنسان، إن أراد الفكاك منها، أن يغترب إلى أرض لم يطأها من قبل مثله، وهذا أمر في غاية الاستحالة؛ إذن فعليه أن يتمسك بالفوائد العقلية المحضة فهي التي ستبلغه أعلى درجة من درجات سلم السعادة, بعد ذلك اتجه بهم الحديث إلى سؤال الشيخ عن أقاليم الأرض وحدودها، فقال: إن حدود الأرض ثلاثة، حد يحده الخافقان، وحدّان هما: حد المشرق وحد المغرب لكل واحد منهما صقع قد ضرب بينهما وبين عالم البشر بسور لا يتعداه إلا الخواص بخروجهم من عين الحيوات الراكدة واغتسالهم في العين الخرارة فيتطهرون، ثم يحدثهم عقب ذلك عن ملك تلك الحدود الثلاثة الذي يقوم بوصفه بأكمل وأتم صفات الجلال والكمال، والبهاء والجمال "[2] .

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان تحقيق احمد أمين دار المدى للثقافة والنشر سورية دمشق 2005 ط 1 1947 ص ص 40.41

[2] نفسه ص ص 44 50.

ثانيا : قصة حي بن يقظان للسهروردي أو كما سماها (الغربة الغربية):

" ويقول فيها سافرت مع أخي عاصم من ديار ما وراء النهر لنصيد طائفة من طيور ساحل لجة الخضراء فوقعنا بغتة في قرية الظالم أهلها أعني مدينة قيروان فلما أحس قومها أننا قدمنا عليهم ونحن من أولاد الشيخ المشهور بهادي بن أبي الخير اليماني أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسل وأغلال من حديد وحبسونا في مقعر بئر لا نهاية لمسلكها , وكان فوق البئر المطلة التي كنا فيها قصرا كبيرا عليه أبراج عالية فقيل لنا يمكنكم الصعود إلى القصر مساءا أما عند الصباح فلا بد من النزول في غيابة الجب وكان في قعر البئر ظلام شديد إذا أخرج يده لم يكد يراها وكنا نطيل النظر فربما تأتينا حمامات اليمن مخبرات بحال الحمى وأحيانا تزورنا برق يمانية تومض من الجانب الأيمن الشرقي "[1].

"وبينما نحن في الصعود ليلا والهبوط نهارا إذ رأينا **الهدهد*** مسلمة في ليلة قمراء في منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة وقال لي أنا أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من سبأ بنبأ يقين وهو ذا مشروح في رقعة أبيكما, فلما قرأنا الرقعة فإذا مكتوب إنه من الهادي أبيكم وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كم شوقناكم فلم تشتاقوا ودعوناكم فلم ترحلوا وأشرنا لكم فلم تفهموا وأشار في الرقعة إلي بأنك يا فلان إن أردت أن تتخلص مع أخيك فلا تنيا في عزم السفر واعتصم بحبلنا وهو جوهر الفلك القدسي المستوي على نواحي الكسوف فإذا أتيت وادي النيل فانفض ذيلك, وقل الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور وأهلك** واقتل امرأتك إنها كانت من الغابرين وامض حيث تؤمر فإن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فاركب في السفينة،السفينة التي باسم الله مجريها ومرسيها في الرقعة جميع ما هو كائن في الطريق "[2].

---

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي. حي بن يقظان م.س ص ص 131 , 132.

* يريد بالهدهد الوحي والإلهام .

** يريد بالأهل الغرائز والبواعث الجسمانية . ويريد بالمرأة النفس الإنسانية ودواعيها الشهوانية ويقتلها.

[2] نفسه ص 132.

" فبعدما صارت الشمس فوق رؤوسنا إذا وصلنا طرف الظل فركبنا في السفينة ونحن نروم الصعود على طور سينا حتى نرى صومعة أبينا وحال بيني وبين ولدي الموج فكان من المغرقين وعرفت أن قومي موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب وعلمت أن القرية التي كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها ويمطر عليها حجارة من سجيل منضود فلما وصلنا إلى موضع تتلاطم فيه الأمواج وتتدرج فيه المياه أخذت ظئري التي أرضعتني فألقيتها في اليم فكنا نسير في جارية ذات ألواح ودسر وغرقنا السفينة مخافة ملك يأخذ كل سفينة غصبا والفلك المشحون قد مر بنا على مدينة يأجوج ومأجوج على الجانب الأيسر من الجودي،كان معي من الجن من يعمل بين يدي وفي عين القطر فقلت للجن انفخوا حتى صار مثل النار فجعلته سدة حتى انفصلت منهم وتحقق وعد ربي حقا ورأيت في الطريق جماجم عاد وثمود "[1].

"وطفت في تلك الديار وهي خاوية على عروشها وأخذت الثقلين مع الأفلاك وجعلتها مع الجن في قارورة صنعتها أنا مستديرة عليها خطوط كأنها دوابر تقطعت إلا أنها من كبد السماء فلما انقطع الماء عن الرحى أنهدم ألبنا وخلص الهواء إلى الهواء وألقيت الأفلاك على السموات حتى طحن الشمس والقمر والكواكب فتخلصت من أربعة عشر تابوت فألقيت سبيل الله فتيقظت إن هذا صراطي علي مستقيما وأختي قد أخذتها بياتا فباتت في قطع من الليل مظلم و بها جن وكابوس يتطرق إلى صرع شديد ورأيت سراجا فيها دهن ينتج نوره وينتشر في أقطار البيت.وشعل مساكنها من إشراقها نور الشمس عليهم فجعله في فم تنين ساكن في برج دولاب تحته بحر **قلزم*** وفوقه كواكب ما عرف مطلع أشعتها إلا باريها والراسخون في العلم ورأيت الأسد والثور قد غابا والقوس والسرطان قد طويا في طي تدور الفلك وبقي الميزان مسبوقة. فإذا طلع النجم اليماني من وراء غيوم رقيقة متألقة مما نسجته عناكب زوايا العالم الصغرى عالم الكون والفساد وكان معنا غنم فتركناها في الصحراء فأهلكتهم في الزلازل ووقعت فيها نار صاعقة فلما انقطعت المسافة وانقرض الطريق وفار التنور من الشكل

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي. حي بن يقظان م.س ص ص 131 – 132

* **بحر القُلزُم**: البحر الأحمر

المخروط فرأيت الأجرام العلوية واتصلت بها سمعت نغماتها ودستماناتها وتعلمت منها أشياء وأصواتها تقرع مسمعي كأنها صوت سلسلة تجر على صخرة صماء "[1].

" وتكاد تنقطع أدباري وتنصرم مفاصلي من لذة ما انسل ولا يزال الأمر يتطور على حتى تقشع الغمام وتمزقت المشيمة وخرجت من المغارات والحوت قد انقض من الخيرات متوجهة إلى عين الحياة فرأيت الصخرة العظيمة على قلة الطور العظيم فسألت عن الحيتان المجتمعة وعن الحيوانات المتنعمة وهذا الطور ما هو وما هذه الصخرة العظيمة فاتخذ واحد من الحيتان سبيله في البحر سرب؛ وقال ذلك ما كنا نبغي وهذا الجبل طورسينا والصخرة صومعة أبيك فقلت وما هؤلاء الحيتان فقالوا أشباهك أنتم من أب واحد وقد وقع لهم شبه واقعتك فهم إخوانك , فلما سمعت وحققت عانقتهم وفرحت بهم وفرحوا بي، صعدنا إلى الجبل ورأيت أبانا شيخا كبيرة فبقيت متحيرة منه ومشيت إليه فسلم علي فسجدت له ولذت أنمحق في نوره الساطع فبكيت زمانا وشكوت إليه من حبس قيروان فقال إلي نعم تخلصت إلا أنك لابد راجع إلى السجن الغربي , أن القيد ما خلفته تماما فلما سمعت طار عقلي و**تأوهت*** صارخة صراخ المشرف على الهلاك فتضرعت إليه فقال أما العود لك فضروري الآن ولكني أبشرك بشيئين أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجيء إلينا والصعود إلى جنبتنا هين متى شئت والثاني أنك متخلص من الأخر إلى جانبنا تاركا للبلاد الغربية بأسرها مطلقا "[2].

إن هذه القصة إذ تغير على الحال وسقطت من الهوى إلى الهاوية بين قوم ليسوا مؤمنين محبوسا في ديار المغرب وبقي معي من اللذة ما لا أطيق أن أشرحه فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة وتلك الراحة كانت أحلاما زائلة على سرعة نجانا الله من قيد الهيولى والطبيعة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وهذه القصة تسمى الغربية الغربية .

---

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي. حي بن يقظان .م.س ص ص 131 , 132.

* **تأوهت:** تنهد أو تعبيرا عن تجَع أو شكوى.

[2] نفسه ص ص 133-134.

- **خلاصة موضوع قصة الغربة الغربية للسهروردي :**

إن السهروردي قد خرج في رحلة مع أخ له من ديار ما وراء النهر إلى القيروان* وهناك تم القبض عليهما وحبسا في جب عليه قصر مشيد، وكان يسمح لهما إذا جن الليل أن يخرجا إلى السطح، على أن يعودا عند الفجر، وبينا هما على تلك الحال إذ جاءهما الهدهد فقال إني قد أحطت بوجه خلاصكما، وجئتكما من سبإ بنبإ يقين، وألقى إليهما الهدهد رسالة جاء فيها: أنه من أبيكما الهادي، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، كم شوقناكم فلم تشتاقوا، ودعوناكم فلم ترحلوا فإن أردتما الخلاص من ما أنتما فيه فلا تنوا في العزم، واعتصموا بحبلنا.. فسافرا واركبا السفينة التي بسم الله مجراها ومرساها. فركبا السفينة، طلباً للوصول إلى طور سيناء حيث صومعة أبيهما، وهناك وجدا أباهما (ورأيت أبانا شيخاً كبيراً وشكوت له من حبس القيروان، فقال: إنك لابد راجع إلى القيروان). وعندئذ تضرعا إلى الله طالبين الخلاص؛ فبشرهما بأنهما يمكن أن يرجعا إليه متى أراد، وإن كانا في الحبس، كذلك بشرهما بالخلاص[1]

*** تعقيب:**

إن القارئ المتأمل والمتمعن لهاتين القصتين لابن سينا والسهروردي يرى أنهما قد رمزتا إلى العلاقة بين الله الخالق والإنسان المخلوق، التي متى صفت كانت النفس أكثر صفاءً إلا أنه على الإنسان أن يكابد عناء الوصول إلى حالة الصفاء، وهي درجة روحية لا يبلغها إلا القليل، وهم أولئك الذين تمكنوا من هزيمة جيوش الشهوات، وهي من أعتى الجيوش وأقواها، وكان قائدهم وحاديهم في هذه المعارك التي خاضوا رحاها هو العقل الذي رمز له ابن سينا بالشيخ (حي)، في حين يرمز له السهروردي بتلك الرسالة.وهذا العقل هو الذي يخرج الإنسان من ظلمات الجهل، وينقله إلى نور العلم والمعرفة (الحق) الذي هو عند ابن سينا عالم ما وراء الحدود الثلاثة، وعند السهروردي فهو القصر المشيد فوق الجب. أما الجهل وظلماته فيرمز له ابن سينا بالغرائز الإنسانية التي تثيرها وتهيجها رفقة السوء، بينما يرمز له السهروردي بالجب.

---

*__القيروان__ : هو بلد بالمغرب بإفريقيا.

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص 134.

ثالثا: الرسالة الكاملية (فاضل بن ناطق) :

غير ابن النفيس اسم حي بن يقظان إلى (فاضل بن ناطق)

محور هذه الرواية تدور حول شخص يدعى كامل، لم يولد ولادة طبيعية من رجل وامرأة بل ولد في مغارة في جزيرة معتدلة الهواء، كثيرة العشب والأشجار والثمار، عقب حدوث سيل كبير فيها تسرب إلى المغارة مع ما جرفه من تراب مختلف الطبائع ,فيخرج كامل من مغارته فيشاهد الطبيعة والفضاء، ويسمع أصوات الطيور وخرير ماء الأنهار وحفيف الرياح، ويشم روائح الزهور والنبات، ويأكل من الثمار التي تساقطت من الأشجار، ويحس بحرارة الهواء وبرودته.

" بعد ذلك بدأ يغمض عينيه فتغيب المرئيات عنه فإن فتحهما أدركها، وإذا سد أذنيه غابت عنه الأصوات، فإن أبعد عنهما أصبعيه أدركها، فعلم أن هذه الأعضاء هي آلات للإدراكات, ثم تشوّق إلى معرفة منافع ما في داخل البطن والصدر، فصار يشق بطون الحيوانات التي يمسكها ويتأمل المعدة والأمعاء والكبد والقلب والرئتين، حتى وقف على جملة كبيرة من علم التشريح، ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة النباتات، ثم ظواهر البرد والثلج والمطر والرعد والبرق، فالأجسام السماوية وحركاتها,ونتيجة هذه الخبرات امتلك كامل قدرة على الاستنباط والاستقراء، ففكر في ما إذا كانت هذه الموجودات جميعا، موجودة بذاتها أم بموجد، فإذا كانت لموجد، فما ذلك الموجد وكيف حاله؟ وإذ شاهد كثيرا من الأجسام توجد تارة وتنعدم أخرى، انتهى إلى أنه لابد أن يكون للأجسام والظواهر الطبيعية موجد غيرها هو واجد الوجود، هو الله الخالق "[1].

[1] يوسف زيدان حي بن يقضان النصوص الأربعة ومبدعوها دار الأمين جمهورية مصر العربية ط2 1419هـ-1998م ص ص، 272, 279.

" في أثناء بحثه وتفكيره ، ألقت الريح إلى الجزيرة بسفينة فيها ناس كثر، فلما رأوا كاملا وأنسوا إليه قدموا إليه طعاما مطـــبوخا أعجبه مذاقه، وثيابا تقيه حدة البرد، واجتهدوا في تعليمه لـــــغتهم.ثم ارتحل كامل مع أصحاب السفينة، فأدرك أن الحياة لا تستقيم إذا عاش الإنسان منعزلا، كما أدرك أن الحياة المشتركة تتطلب معاملات مشتركة أيضا، بيد أن المعاملات قد تفـــضي إلى منازعات تحتاج تسويتها إلـى قانون أو شريعة يقبلونها ويطيعونها لكن الـــناس لن تصـدق أي أحد إلا إن كان شخص يعظمونه ويؤمنون باتصـاله بالله في ما يخبرهم بيه، ومع ذلك يصعب على العقل الإنساني تقبل هذه المفاهيم دفعة واحدة، ومن هنا كانت حكمة الله تعالى، أن أرسل الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ لينقلوا ما يريده الله بالتدريج على مر التاريخ "[1].

" فيفكر كامل في كيف ينبغي أن يُربّى هذا النبي بعد مولده، فقال في نفسه أن هذا لما كان خاتم النبيين و فاضلهم وبه تكمل الشريعة وبعده ينقطع الوحي، فلا بد أن يكون رسولا إلى الناس كلهم حتى لا تبقى أمة تحتاج إلى بعثة نبي آخر، ولا بد أن يكون ذا اعتدال حتى يتقبله كل الناس على اختلاف مشاربهم , وبالتالي وجب أن يموت أبوه أولا ثم تموت أمه، فيربيه شخص آخر يستفيد من أخلاقه، ثم ترضعه امرأة غير مكية، حتى يستفيد من أخلاق المكيين وغيرهم,بعد ذلك، ينتقل ابن النفيس إلى كيفية معرفة كامل للحوادث التي وقعت منذ المنازعة على الخلافة بين أصحاب هذا النبي بعد وفاته، وحروب الدولة التي يؤسسها، حتى هجوم المغول، فلا يصدهم إلا ملك ذا بأس وقوة, ولا يجوز أن يكون هذا السلطان من أهل المدن، لأن أهل المدن بعيدون عن هذه الأخلاق، ولا بد أنه من أهل الأقاليم الشمالية القريبة من أرض المغول لاتفاقه في المزاج معهم، واتفاقه معهم في الشكل أيضا، حيث هو ضيق العينين، عريض الأكتاف، عظيم الرأس

[1] يوسف زيدان حي بن يقضان النصوص الأربعة ومبدعوها م س , ص , ص 272 , 279.

وفي هذا يشير بعض الباحثين إلى أن من المرجح بأن ابن النفيس كان يقصد بهذه الصفات **الظاهر بيبرس*** حيث كان ابن النفيس طبيبه الخاص "[1].

رابعا: قصة حي بن يقظان عند ابن طفيل:

تعدّ قصة «حي بن يقظان» قصة رمزية فلسفية تفترض نمو العقل الموحّد منذ بداية خلقه حتى وصولة إلى معرفة الله معرفة أتم، حيث تَعْرَّضَ ابن طفيل لمشكلة التوفيق بين الفلسفة والدين، وبيَّن لنا أن ما وصل إليه «حي بن يقظان» بالنظر العقلي والتأمّل، لا يخالف الدين الموحى بيه.

كما يعدّ ابن طفيل أول فيلسوف إسلامي صبَّ خلاصة فلسفته كلها في قالب قصصي وجعل بطل قصته شخصًا متوحّدًا يكوّن نفسه وأفكاره بالاحتكاك بالطبيعة وبالكائنات التي هي أقل منه درجات من جماد ونبات وحيوان، إلى أن يصل لنقطة الإدراك والاتصال، فهذه القصة الرمزية تعدّ بحق نوعًا من الفانتازيا العقلية التي قَلَّدَها ونسج على منوالها كثيرون من كتاب الإفرنج ومفكريهم , فهي باختصار شديد تقدّم حالة جديدة منفردة، تتحدّث عن طوباوية فردية، ولا تتحدّث عن نظام اجتماعي، وهي تعرض حياة طفل إنساني عاش منفردًا واستطاع بعد جهد وتأمّل أن يصل إلى حياة مثالية تعتمد على الذكاء والعقل، كما تعتمد على الاكتفاء الذاتي.

فلذلك تعدّ هذه القصة الفلسفية الرمزية بمثابة ظاهرة فريدة في الفكر العربي، حيث عرض صاحبها مذهبه الفلسفي في قصة شائقة يمكن اعتبارها نسقًا فلسفيًّا متكاملًا، ومذهبًا

* الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البُنْدُقْداري ألصالحي ألنجمي لقب بأبي الفتوح .سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي.

** ملاحظة : كانت رسالة فاضل بن ناطق لابن النفيس بعد الروايات الثلاثة لابن سينا والسهروردي وابن طفيل.

[1] نفسه ص ص 279-282.

فكريًّا تامًّا، وهو ما أراد هذا البحث أن يُثبته معتمدًا على مناهج التحليل والمقارنة والنقد وكما يعتبر بناءها الروائي محكمًا يبدو فيه ابن طفيل متمكنًّا من فن السرد والوصف والتشويق،حتى يمكننا اعتباره سابقًا لعصره بل سابقًا للعالم كلّه إلى فن الرواية الحديثة.

من المؤكد أيضا أن ابن طفيل قد اطلع على قصتي ابن سينا والسهروردي، وتأثر بهما حينما أخذ يكتب قصته (حي بن يقظان)، حيث يقول: ... فأنا واصف لك قصة(حي بن يقظان وأسال وسلامان) ففي قصصهم عبرة لأولي الألباب وذكرى لمن ألقى السمع وهوشهيد.

على الرغم من أن ابن طفيل قد قرأ القصتين؛ إلا أنه قد تفرد في قصته عندما قدم بطل قصته بشكل مختلف كل الاختلاف عن بطل قصة ابن سينا فالأخير نشأ نشأة طبيعية، بينما أضاف الأول إلى بطله صورة غير عادية تنبئ عن نشأته، فهو ربما يكون قد خرج إلى هذه الحياة عن طريق تولده من طينة في جزيرة من جزائر الهند، تحت خط الاستواء تتميز بأنها من أعدل بقاع الأرض هواءً وأتمها لشروق النور الأعلى عليها.

بالرغم من غرابة هذه الفكرة إلا أنها غير مستبعدة على قارئ القرآن العظيم، فإن إرادة الله، جلت قدرته، قد اقتضت من قبل خلق آدم (عليه السلام) من طين، والذي يقرأ القرآن العظيم يجد ذلك في غير ما آية من آي الكتاب الكريم : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ) [1] وقوله، تعالى، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)[2] وقوله تعالى(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) [3].

[1] سورة ص الآية 71

[2] سورة الأنعام الآية 02

[3] سورة الصافات الآية 11

ومهما يكن من أمر فإن بطل ابن طفيل قد جاء إلى هذه الدنيا وعاش فيها على الصورة والشكل الذي رسمه له المؤلف.

*** مضمون القصة :**

ولد (حي) بطل القصة من زيجة تمت بين يقظان قريب الملك، وأخت ذلك الملك اللذان تزوجا سرًا، وبعد أن وُلد (حي) من تلك الزيجة قذفت بيه أمه في اليم بعد أن أرضعته ووضعته في تابوت (صندوق صغير) وقالت(اللهم انك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيء مذكورا ورزقته في ظلمات الأحشاء وتكفلت بيه حتى وأنا قد سلمته إلى لطفك ورجوت لك فضله خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا ارحم الراحمين)[1] وألقته في اليم فجرى بيه الموج إلى ساحل إحدى الجزر، واستقر بيه المقام في أجمة ملتفة الشجر وبقي محجوزاً في تلك الأجمة , فلما أحس الطفل بالجوع علا صوته بالبكاء، فانتبهت إحدى الغزلان التي كانت قد فقدت طلاها فأخذت في إرضاعه ورعايته إلى أن بلغ العام الثاني من عمره، ثم راح ينمو مع مرور الوقت مع سرب من الغزلان , ولكنه كان كثيراً ما يتأمل في حياة الكائنات في الغابة ويقارن بينها وبين نفسه فهو عار من الريش والشعر كما أنه ضعيفا القوى أمام المخاطر، فاتخذ لجسمه غطاءً من ورق الشجر من أمام ومن الخلف وهو يبدله بين فترة وأخرى كلما جف، فلما أعياه التغيير والتبديل جعل غطاء جسمه من ريش أحد الصقور الميتة، كما صنع من فروع الشجر عصىً يدفع بها الأخطار عن نفسه , وظل على تلك الحال إلى أن كبرت أمه (الظبية) ثم ماتت بعد ذلك، وعند ذلك راح يتساءل لماذا هي لا تتحرك؟؟ وظل جالساً بقربها يتفحص أعضاءها الخارجية عله يدرك سر تعطل أحدها، ولما لم يصل إلى شيء قرر تقطيع أوصال الظبية فربما يدرك مبتغاه , وبعد تفحصه للأجزاء توصل إلى القلب الذي رأى أنه هو الذي يحمل سر الحياة , فعمل على تفحص العديد من أعضاء الحيوانات الميتة أو التي كان يقتلها في عراكه معها. إلا

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص66 .67.

أن أبعد ما توصل إليه هو أن هناك شيء واحد مشترك وموجود في جميع هذه الكائنات التي تعيش في الغابة، ولكن ما هو؟؟ إنه لا يدري. وعاش (حي) في الجزيرة وهو يعمل عقله وفكره في المقارنة بين الأشياء من: حيوانات ونباتات وجمادات، بل راح يقارن ذاته بكل ما هو موجود بقربه في تلك الغابة فلم يعثر لنفسه على مثيل أو شئ يشبهه وأكثر"[1] .

واصل (حي) من البحث والتفكير في الماديات المحسوسة، وفي هذه الأثناء تعلم الكثير والمفيد الأمر الذي يسر له الحياة وساعده على توفير سبل العيش في أحضان الجزيرة. وبينما هو يسعى إلى المعرفة تاقت روحه إلى البحث في الصور، وهي المعاني المجردة من المادة، وهنا تراه يضع قدمه على أول درجات سلم المعرفة, وبعدها يكتشف (حي) النار التي إنقدحت من احتكاك

بعض الأغصان الجافة، فأفاد منها فائدة عظمى حيث أخذ منها الضوء والدفء وإنضاج الطعام، كما استفاد منها في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه من الحيوانات كذلك تذكر أن جسد الظبية كان حاراً فلما نفقت صار بارداً؛ فوقع في خلده أن الشيء الذي فارغ جسد الظبية ربما كان من جوهر هذه النار ووجه تفكيره إلى هذا الجانب علّه يظفر بما يبحث عنه من إدراك سر الحياة[2].

" سارت في دخيلة نفسه العديد من الأسئلة والاستفسارات،وبعدها أخذته الحيرة ، ما الذي سيفعله بهذا الجسد المقطع الأوصال؟؟ وفجأة اقتتل أمامه غرابان فقتل أحدهما الآخر وقام بحفر الأرض لدفنه، فما كان منه إلا أن عمل على تقليده فوارى، أمه (الظبية) التي ربته ورعته، الثرى وأول شيء أثار انتباهه هو الماء؛ فإنه إن برد سال وتدفق إلى أسفل وإن سخن وزالت عنه البرودة أخذ في الصعود إلى أعلى؛ فأدرك أن لكل حادث محدِث، ثم ازداد

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص69.66.

[2] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص67 – 70.

في التفكر والتأمل فتبين أن الأفعال الصادرة عن الأجسام ليست لها في الحقيقة وإنما هي لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها "[1]، وهذه الخاطرة التي لاحت له إنما هي مما ورد في القرآن العظيم حيث يقول، تبارك وتعالى،: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[2].

"ضل (حي) يتعمق في بحثه وتأمله في الموجودات فرأى أنها تتكون تارة وتفسد تارة أخرى وهذا هو القانون الذي يسري على الكل دون استثناء، بعد ذلك راح يقلب بصره في السماء وهو يتأمل ما فيها من شمس وقمر ونجوم؛ فتكونت لديه معرفة بعلم الهيئة فجميع الأفلاك في حركتها يضمها فلك واحد هو الذي يعمل على تسيير حركة الكل, وهنا برزت في ذهنه أسئلة واستفسارات: من أين خرج هذا الفلك؟ وكيف ظهر إلى الوجود ؟ وهل هو شيء حدث بعد أن لم يكن ؟ ووجد في الوجود بعد العدم؟؟ أم أنه كان موجوداً ولم يسبقه عدم؟. وبقي (حي) يبحث عن الإجابة أو الإجابات سنوات عدة فتتعارض عنده الحجج، ولا يترجح لديه أي من الاحتمالات التي يراها، ولكنه توصل إلى يقين جازم وراسخ هو أن لهذا الوجود فاعل ولابد لهذا الفاعل من صفات تميزه عن غيره "[3].

" وبعد تدبر وتفكر رأى أن هذا الفاعل لا يمكن أن تدركه الحواس، أي أنه ليس بجسم، ولا يدرك بالخيال؛ لأن الخيال يقوم اعتماداً على الحواس وبالتالي فهو منزه عن كل صفات الجسم، كما رأى (حي) أن هذا الفاعل، ربما كان هو موجِد هذا الوجود فهو إذن قادر ومسيطر عليه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[4] ولم يقف (حي) عند هذا الحد بل أخذ في التساؤل، كيف بلغ هذا الحد من المعرفة التي رسخت في نفسه؟؟ وبعد طول تفكر في حواسه التي استخدمها في الوصول إلى تلك الدرجة من الإدراك علم أن هذه الحواس

---

[1] نفسه ص ص 67 – 70.

[2] سورة الأنفال الآية 17.

[3] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص67 – 70.

[4] سورة الملك الآية 14.

قاصرة عن أدراك كل هذه الحقائق التي تمكن من إدراكها؛ إذن فلابد من أن هناك شيء ليس بجسم ولا هو بقوة من قوى الجسم هو الذي مكنه من الحصول على كل هذه المعرفة اليقينية الراسخة في كثير مما ذهب إلى التفكير فيه. لقد أثار ذلك في نفس (حي) قلقاً أرقه بالتفكير مما أدى بيه إلى البحث في النفس التي سماها (الذات الشريفة)، لأنها هي التي أعانته على الوصول إلى الإدراك اليقيني الذي بلغه، حيث أدرك أن هناك موجودًا واجب الوجود "[1]

من بين تلك الأسئلة المحيرة عن النفس والتي دارت في ذهن (حي) هل هذه النفس قابلة للفناء؟ . أم أنها دائمة البقاء (خالدة) ؟.

" فاهتدى من خلال التفكر إلى أن الفساد والعلل والفناء هي من صفات الجسد، فأدرك بفطرته أن هذه النفس ليست بمادية وإنما هي روحانية، وهي دائمة الميل و التوقان إلى الفاعل الموجد لهذه الوجود. إذن هذه النفس مفارقة للجسم ومنفصلة عنه، كذلك لا يعتريها الفساد ولا الفناء، فدعاه ذلك إلى الاعتقاد بأن سر سعادة النفس وكمال ذاتها يكمن في لذة المشاهدة أي مشاهدة الموجود الواجب الوجود على الدوام والاتصال به فلا ينقطع عنه طرفة عين حتى تدركه المنية وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون ألم، فعليه إذن أن

لا ينقطع تشبهه وأن لا ينسى اتصاله بهذا الموجود الواجب الوجود، وعليه أيضاً أن يتخلى عن صفاته التي يشترك فيها مع الحيوان[2].

[1] نفسه 70.68.

[2] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص70- 119.

" استطاع (حي) أن يدرك بعقله أن جميع صفاته وأفعاله لا تخرج عن أنواع ثلاثة هي:

* **النوع الأول** : أنه أشبه بالحيوان في بعض صفاته وأفعاله، الأمر الذي يصعب مهمته ويعوقه عن الوصول إلى الشعور والإحساس بلذة المشاهدة، وهو يرى أن في ذلك منتهى سعادته.

* **النوع الثاني** : أن صفاته أقرب إلى الأجرام السماوية، وفي ذلك حظ عظيم من المشاهدة، ولكنها مشاهدة مشوبة ببعض **الكدر***.

* **أما النوع الثالث** : من صفاته وأفعاله فهو ذلك الذي يعينه على الاستغراق المحض الذي لا التفات فيه لغير الموجود الواجب الوجود؛ وذلك لا تتكدر لذة الشعور والإحساس بالمشاهد., ولكي يدرك الوصول إلى النوع الثالث من صفاته وأفعاله فلابد من الارتباط والتمرين اعتماداً على النوع الثاني مدة من الوقت حتى يتمكن من بلوغ النوع الثالث من الصفات والأفعال، فتفكر في حاله فرأى أنه لا غنىً له عن أحد أمرين هما: الحاجة إلى الغذاء حتى يبقي عل حياته، والأمر الثاني هو حاجته لشيء يقيه من عوامل الطبيعة كالحر والبرد والمطر ... وغيرها "فهدته فطرته إلى أن الحزم يفرض عليه أن يحد لنفسه حدوداً لا يبعد عنها ولا يتعداها، ومقادير لا يتجاوزها فنظر في أصناف الموجودات التي يتغذى عليها فوجد أنها: إما نبات لم تنضج بعد، أو ثمار اكتمل نموها لإخراج نوع آخر لحفظ النوع، وإما أنه من الحيوانات البرية والبحرية "[1].

وكان (حي) قد أدرك من قبل أن هذه الأصناف هي من صنع الموجود الواجب الوجود، الذي أيقن أن سر سعادته مرتبط بيه لا بغيره وبناءاً على ذلك وضع (حي) لنفسه خطاً لا يخرج عنه في غذائه لأنه ضرورة لبقاء الحياة والحفاظ عليها، كان يطعم نفسه من ما تيسر

* **الكدر**: غمّ ، كآبة ، حزن .

[1] نفسه ص ص108.80.

له، فإن توفرت العديد من أصناف الطعام فعليه أن يأكل من ما لا ضرر فيه لفعل الموجود الواجب الوجود وأن يجعل البذور في موضع يمكنها من النمو مرة أخرى، كذلك عليه أن يتخير طعامه من أكثرها وفرة، وأقواها توليداً وإنباتاً محاذراً أن لا يبتر أصولها. أما إذا أخذ من الحيوان فعليه أن يأخذ من أكثرها وجوداً وتوالداً أو من بيضه. هذا ما كان من أمر غذائه أما من حيث المقدار فعليه أن يكتفي بما يسد الرمق* والخلة** أي أن لا يسرف في الأكل.

" ولم يزل (حي) ملتزماً بما وضعه لنفسه من حدود وهو يطلب الفناء والإخلاص في مشاهدة الحق حتى يتأتى له ما أراد ، ولم يبق في حياته ولا في تفكيره إلا الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي بلغ حداً من القرب منه والاتصال بيه وذلك أنه كان يصل إليه متى شاء وكيف أراد ، فبقي في تلك السعادة أسابيع وهو لا ينقطع عن الشهود والاتصال. بعد ذلك تأتي مرحلة جديدة في حياة (حي) وهي بداية العلاقة بينه وبين (أسال) الذي نشأ في جزيرة تبعد عن تلك التي ترعرع بين أحضانها (حي)، وقد تعلم الأول أسس عبادة الله الواحد الأحد من ملته التي أخذت تعاليمها من أحد الرسل، ولم يتوقف (أسال) عند حد الظاهر من تلك الشريعة أو العقيدة التي كان يدين بها، بل كثيراً ما كان يغوص متأملاُ في باطن وأعماق المعنى الظاهر باحثاً عن معنى يتفق والعقل السليم، فمال إلى العزلة والتأمل والانقطاع عن الجماعة؛ لذلك أزمع الرحيل إلى الجزيرة القاطن بها (حي)، دون معرفة منه بيه ، لما سمعه عنها من خصب مرتعها وطيب هوائها وهدوئها، الأمر الذي سيساعده على التفكر والتأمل"[1].

" فعزم (أسال) وتوكل على الله وجمع كل ماله فاكترى بجزء منه مركباً وتصدق بما تبقى من المال على الفقراء. وهناك انقطع (أسال) للعبادة والتبتل لله، تعالى، متفكراً ومتأملاً، ومستأنساً بمناجاة ربه. وفي هذا الوقت كان (حي) منقطع للموجود الواجب الوجود ولا يخرج من مغارته إلا

* **الرمق:** القليل من الطعام لينقض بيه نفسه من الموت جوعا.

** **الخلة:** أي الحاجة.

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص 123-124.

مرة كل أسبوع باحثا عن الغذاء، فاتفق أن تراءى في مرة من المرات كل من (حي) و(أسال) فظن الأخير أن الذي رآه هو أحد النساك فعليه ألا يفسد عيه خلوته ، أما (حي) فقد أخذته الدهشة والحيرة من أمر هذا الكائن الذي كانت عليه مدرعة من الشعر سوداء فظنها (حي) شعر طبيعي. وعند ما جد (أسال) في العودة إلى مكان عبادته تبعه (حي) وأنصت إلى خشوعه في تعبده فعرف بحسه أنه لا يشبه ما كان يراه من الكائنات في الجزيرة , ولكن (أسال) أخذه الرعب وانطلق هاربا، ولكن حيَّ لم يتركه وجد في اللحاق بيه حتى امسكه، وزاد من خوف (أسال) ما رآه من منظر (حي) الذي ما زال يصدر من الحركات والأصوات حتى طمأن (أسال) وسكن، عند ذاك قرب (أسال) طعامه إلى حي الذي تناوله فاستطابه وأحس بالألفة* مع (أسال) فأشفق عليه ورغب في تعليمه الكلام مبتدئً بالأسماء حتى تمكن . في وقت وجيز . من الكلام "[1].

"عندما أتقن (حي) الكلام سأله (أسال) عن شأنه ،فأخبره بأنه لا يدري من أمره شيئاً أكثر من ما أخبره بيه، وسار بهما الحديث عن المعارف العقلية التي يمكن للإنسان أن يدركها ببصيرته فتطابقت عندهما المعرفة. وتحدث (أسال) عن جزيرته وأحوالها، وعن العقيدة هناك، فتنبه (حي) إلى أن الشرع الذي جاءت بيه الرسل لا يخالف ما توصل إليه بعقله، فآمن وصدق، والتزم بمبادئ الشرع إلا أنه بقي في نفسه أمران: لمَ ضرب الرسول الأمثال في كثير مما وصفوه للناس من أمر العالم الإلهي، وأضربوا عن مكاشفتهم مما ساق الناس إلى الوقوع في الأخطاء؟ أما الأمر الثاني فهو لمَ أباح الشرع اقتناء المال؟؟ ففي رأيه أنه لا يجوز للفرد أن يأخذ أحد شيء مما في الحياة إلا ما يقيم أوده، وأما المال فلا معنى له عند (حي)" [2].

* **الألفة** : الاجتماع والالتئام بين شخصين أو أكثر يحدثها تجاذب الميول النفسية كصلة القرابة .

[1] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص ص123.110.

[2] نفسه 124-127.

" وكان في ظن (حي) أن ما جاء في الشرع من أحكام البيوع والعقوبات وغير ذلك إنما هو تطويل لا طائل من ورائه؛ وذلك لاعتقاده أن الناس جميعهم من ذوي الفطرة الفائقة ففكر في الاندماج في مجتمع الناس حتى يستطيع أن يقوم بإخراجهم من الظلمات إلى النور بهدايتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد، واستشار في هذا بصديقه (أسال) فأيده وعزز هذا رأيه وتفكيره بالذهاب إلى جزيرة (أسال) لعل الله يرشد بيه المعرضين عن الإيمان بالحقائق الإلهية , واتفقا على أن يلازما ساحل الجزيرة حتى يهيئ الله لهما أمر الرحيل؛ فهيأ الله لهما سفينة جنحت إلى تلك النواحي وقبل ذووها أن يحملاهما معهم, ودخلا الجزيرة معاً فذهب (أسال) بصديقه (حي) إلى بعض أصحابه وعرفه بهم فعظموه وقدروه أيما تقدير، وأخبره بأن هؤلاء هم الأقرب إلى الفهم من أهل الجزيرة فعليه أن يبدأ بهم، فمازال بهم (حي) يبين لهم الحق فلا يزدادون إلا بعداً ونفورًا، حتى بلغ منه اليأس مبلغاً عظيماً، ثم أنه راح يتأمل في أحوال الناس فوجد أن أكثرهم بمنزلة الحيوان , هنا أدرك الحكمة من بعث وإرسال الرسل، وأن لهداية والرشد من الله، وأن كل ميسر لما خلق له، كما جاء في صحيح البخاري (عن عمران قال قلت يا رسول الله فيما يعمل العاملون قال كل ميسر لما خلق له) [1] ، وكأنه يتلو قول الله، تعالى،: (اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا) [2]؛ فآب ورجع إلى رأيهم واهتدى بهديهم ، كما أوصاهم بالالتزام والتمسك بالشرع .

"في آخر القصة عاد كل من (حي وأسال) إلى موطن الأول واجتهدا في العبادة والتبتل طلباً للوصول إلى المقام والدرجة التي يبقيها (حي) من قبل لقائه ب (أسال) وجدا في ذلك بهمة ونشاط حتى لقيا الله. "[3].

- **تعقيب :**

---

[1] صحيح البخاري ج6/ص2745

[2] سورة الفتح الآية 23

[3] ابن سينا وابن طفيل والسهروردي حي بن يقظان م.س ص127

إن القارئ المتأمل والمتمعن لقصة حي بن يقضان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي وقصة فاضل بن ناطق لابن النفيس يرى أنها قد رمزت إلى العلاقة بين الله الخالق والإنسان المخلوق،التي متى صفت كانت النفس أكثر صفاءً إلا أنه على الإنسان أن يكابد عناء الوصول إلى حالة الصفاء، وهي درجة روحية لا يبلغها إلا القليل، وهم أولئك الذين تمكنوا من هزيمة جيوش الشهوات، وهي من أعتى الجيوش وأقواها. وكان قائدهم وحاديهم في هذه المعارك التي خاضوا رحاها هو العقل الذي رمز له ابن سينا بالشيخ (حي)، في حين يرمز له السهروردي بتلك الرسالة، وهذا العقل هو الذي يخرج الإنسان وينقذه من ظلمات الجهل، وينقله إلى نور العلم والمعرفة (الحق) الذي هو عند ابن سينا عالم ما وراء الحدود الثلاثة، وعند السهروردي فهو القصر المشيد فوق الجب ، أما الجهل وظلماته فيرمز له ابن سينا بالغرائز الإنسانية التي تثيرها وتهيجها رفقة السوء، بينما يرمز له السهروردي بالجب.

فمن الواضح أن القصتين الرمزيتين قد هدفتا إلى إظهار قوة العقل والتي تجعل منه قوة متفردة ومتحكمة في الغرائز التي دائماً ما تورد الإنسان موارد الهلاك , والرمزية هنا تعني الإشارة إلى الطريق يسلكها الفرد بهدف الوصول إلى حالة الصفاء الروحي والسكينة والسلام النفسي، والراحة البدنية ، وهي طريق شائكة يصعب ويشق السير فيها على كل مريد للوصول لتلك الحالة ، يقول الرسول، الكريم عليه أفضل صلاة وأتم تسليم (عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[1] إذن فالطريق إلى الله صعب ووعر ولا سبيل إليه إلا بهاد يهدي إلى سواء السبيل، وهو العقل الذي هو حادي الإنسان إلى الحق (الله) الذي لا إله سواه ولا مناص منه إلا إليه.

خامسا: التضايف والتباين بين القراءات الأربع لقصة حي بن يقظان :

[1] . صحيح مسلم ج4/ص2174.

عند مرور القارئ على قصة حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي وقصة فاضل بن ناطق لابن النفيس يرى انه قد اختلفت الآراء حول حقيقة القصة الواحدة بين أربعة فلاسفة , أو كما عبر عنها يوسف زيدان حين اعتقد أن قصة حي بن يقضان قد " طارت من بين قضبان سجن ابن سينا وسمت إلى ارتفاعات شاهقة في تراثنا العربي ، فتناقلها النساج واقتحم مغاويرها الشارحون ، ومن بعد ابن سينا بقرنين يلتقط ابن طفيل القصة فيستبقي عنوانها ويعيد كتابتها على نحو جديد يخرج بها في إطار القصة إلى عالم الرواية

ومن رواية ابن طفيل يتخذ حي بن يقظان سبيله سربا إلى الأدب الأوروبي , وقريبا من زمن ابن طفيل كان زمن الشاب العجيب الملقب بشيخ الإشراق شهاب الدين السهروردي فيمضي زمن من الإبداع المتواصل حتى يصل إلى مفكر بارز في التراث العربي الإسلامي هو ابن النفيس فراح يعيد صياغة الإطار الروائي لحي بن يقضان مخالفا العنوان إلى عنوان جديد يحمل اسم فاضل بن ناطق التى رواها عن الرجل المسمى كامل " [1].

- **الإشكال الآتي:**

أي من هذه القراءات أحدثت تجاوزا وتميَزا ؟

رغم ما تميَزت بيه الروايات الأربع في اعتماد الأسلوب القصصي الرمي للتدليل على أفكار كاتبيها واللجوء إلى الخيال من اجل التأسيس المعرفي مما جعلها بمثابة ظاهرة فريدة في الفكر العربي والإسلامي , غير أن اغلب المؤرخين يرون فيما قدمه ابن طفيل تجاوزا لمن سبقه من الفلاسفة وذلك حين عرض مذهبه الفلسفي في سرد قصصي مشوق وفقا لنسق فلسفي متكامل ومذهب فكري تام معتمدا على مناهج التحليل والمقارنة والنقد الفلسفي .

[1] يوسف زيدان ، حي بن يقضان النصوص الأربعة ومبدعوها ، م.س ص. ص 6 , 7.

على أن غاية ابن طفيل من هذه القصة لم تكن " كما فهم عن الواحد المراكشي محاولة عرض كيفية بدئ الخلق أو بيان أصل النوع الإنساني فيما يرى الفلاسفة , وإنما غايته الأساسية في إيضاح رأيه في كيفية المعرفة وهو يتخلص في أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقائق ولو كان قد نشأ في عزلة تامة ولم يتلقى أي ثقافة خارجية ولم يحتمل اقل اثر من غيره إلا أن اثر العقل الفعال الذي ينير عقله , وكذلك يستطيع أن يدرك هذه الحقائق ويتذوقها إذا لقنه غيره إياها , ولكن على شرط أن يكون هذا الإنسان من الخاصة الذين منحتهم السماء موهبة فلسفية كحي بن يقظان" [1].

إن قصة حي بن يقظان عند ابن طفيل كما يراها الباحث محمود إسماعيل* " كانت انضج وأطول وأكثر إستعابا , وان فلسفته كانت انعكاسا للصراع بين البرجوازية الآفلة والإقطاع الذي ساد العالم الإسلامي برمته منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى مشارف العصر الحديث "[2].

" إن فلسفة ابن طفيل عكست ازدواجية الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي , ومن ثم أزمة الفكر والثقافة لذلك عول ابن طفيل على الرمز في الإفصاح الحائف عن مكونات ذاته وهي منحازة للعقلانية من ناحية وتنطوي على إرهاصات مادية جدلية من ناحية أخرى, وفي الحالتين تعني بنزعة إسلامية مستنيرة وهذا يعني تعويله على مرجعيات متعددة التشيع والاعتزال والتصوف ألعرفاني الذي يحض على الثورة من منطق تنويري إلى القوى المعارضة"[3].

---

[1] محمد غلاب , الفلسفة الإسلامية في المغرب ,دار أحباء الكتب العربية , القاهرة , (د.ط) 1948, ص 45.

* محمود إسماعيل مؤرخ ومفكر مصري متخصص في التاريخ الإسلامي ورئيس تحرير سلسلة الذخائر الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة , من مواليد 21 ابريل 1940.

[2] محمد غلاب , الفلسفة الإسلامية في المغرب م س , ص 45.

[3] محمد الحماص ، حي بن يقظان ’لابن سينا , والسهروردي, وابن طفيل https://middle-east online.com-22oct2017 تم الاطلاع : 2020/04/01-12:33.

وبناءا على التصورات التي قدمها ابن طفيل فإنها تنطوي على الأخذ بأسباب الارتقاء في درجات الوعي والإدراك .

" إذ أن فلسفته في تميزها تعبر عن :<< أزمة فيلسوف حرص على توجيه خطابه إلى النخبة المثقفة القادرة على توعية الجماهير الغاضبة لمواجهة سلطة مستبدة جائرة , كما تعبر عن خشيته من معبة تلك السلطة وفق فقهائها حفاظا على حياته "[1].

[1] نفسه.